زمن الأنعام

بقلم / عادل

علاقات الحب :

النظرة العامة على الساحة العاطفية اليوم ترينا أن هناك حالة فك ترابط رهيب شامل ومتكرر في علاقات الحب الحديث، وترينا أن ظاهرة الوفاء أصبحت حكاية خرافية ورواية غريبة تروى وكأنهم عن أهل العالم الأخر..

تكاد الواحدة تقول للأخرى من تحبين هذا المساء ؟ وتعلمين من هو حبيبي الجديد ؟ تباهي بكثرة العلاقات..

ولا مانع من أن تتشنج الفتاة ويغمى عليها بكاء وحبا في كل ليلة وتبلغ هذه الحمى أشدها في المدن المتقدمة والسواحل وشواطئها وطالبات الجامعات..

ثم نراها تنحسر كلما نزلنا إلى الأرياف، أو توغلنا في القرى، أو رحلنا مع أهل البادية، ونرى أنفسنا نعود مع البداوة إلى الأصالة والوفاء وثبات العاطفة..

نسمع عن قصص عشاق أقاموا على حبهم حتى الموت، ولا تمر خيانة زوجية دون تجريم وقتل ودون دم، ونرى الوفاء يعود فيكون هو الأصل والقاعدة بينهم..

ونرى نفس هذه الطباع في الأرياف الإنجليزية والأرياف الألمانية والأرياف الفرنسية، كما نراه في جبال لبنان..

فإذا ذهبنا إلى باريس ولندن وبيروت عدنا إلى نماذج التهتك التي نراها في المدن العصرية في الشرق والغرب، ورأينا الحجاب يسقط كما يسقط الحياء، ورأينا فتيانا وفتيات يعيشون بمظاهر غريبة وعجيبة..

أصبحت تنتشر في وطنا العربي كافه وفي المجتمعات الخليجية المحافظة ، يبدو أن للمناخ العام أثرًا في تشجيع صفات معينة في النفوس وأجهض صفات أخرى، ففي الأرياف المناخ العام هو مناخ وفاء..

يلقى المزارع البذرة في الأرض، فلا يخونه المطر ولا تخونه الوديان ولا تخونه الشمس، وإنما يجد الوفاء بالوعد في كل شيء إذا اجتهد في الحرث والري أعطت الأرض ثمارها في الميعاد دون غدر..

ثم إن كل شيء يسير ببطء وهوادة دون استعجال ودون انفعالات ودون مفاجآت، فتتجاور العائلات وتتصاحب وتتقاسم الخير والشر حتى الموت، فلا عجب إن أثمرت هذه الطقوس بالوفاء عند الناس الذين يعيشون فيها..

فيختلف الأمر تماما في المدن وعلى السواحل يتفاود إليها السياح كل يوم، وتلقى السفن بأطنان من النساء والرجال هواة المتعة وطلاب التغيير على الشاطئ بين ساعة وأخرى، فيتسابق الكل في تدافع في اصطياد لذة جديدة..

كما هو الأمر في كافيهات الجامعات التي تتداول عليها طوابير طوافة من المراهقين والمراهقات، فتطن فيها الغرائز والشهوات طنين النحل في خلية، وتلتهب الأنظار والأسماع بما ترى وتسمع..

فتأتي حياة المدن التي لم يعد فيها الإنسان ينتظر من السماء شيئا، وإنما أخذ بزمام الأمر في يده وبدأ يدير كل شيء بأزرار الرادار والأقمار الصناعية والأنترنت والذكاء الاصطناعي فخيل إليه أنه لا رب ولا مهيمن سواه، فألقى بالشرائع والأوامر والأعراف وراء ظهره، وانطلق يعيش على هواه..

تلك هي الحياة المادية الصرفة، وحينما يعيش الإنسان حياة مادية صرفة، فإنه ينفصم تماما إلى لحظات وحالات ونزوات لا رباط بينها إلا هدف اللذة، فالشهوات بطبيعتها سريعة الملل سريعة الضجر طلابه للتغير والتجديد لتظل مشتعلة..

ومن هنا تأتى هذه الحالة العامة من فك الارتباط المتكرر فالعلاقات الطيارة ، ونرى الساحة وقد انقلبت إلى جباية قرود تتلاقح و تتفاسد فيها الإناث والذكور بلا قاعدة سوى لقاء المصادفة..

الغريب أن النفس في هذه الحياة لا تزداد شبعا، بل تزداد جوعًا ولا تزداد امتلاء، بل تزداد خواء، ثم هي تنتهي إلى حالة من الظلمة الحيوانية والقسوة والبلادة، ثم آخر الأمر بفساد الفطرة إلى اليأس والجنون وطلب الانتحار..

لهذا نجد أعلى نسبة للجنون والانتحار في بلاد الترف والتحلل والإشباع الجنسي مثل روسيا وأمريكا والسويد والترويج، ولا نجدها بين الذين يعيشون حياة الريف أو حياة البداوة أو حياة الجبل كما لا نجدها إطلاقا بين أهل الإيمان، وأهل الوفاء وأهل القيم..

يظل هؤلاء الماديون على غوايتهم لا يفيقون إلا على زلزال، أو طوفان أو بركان أو وباء مهلك، تعجز أمامه حيلهم ومعارفهم، فيتوقف الواحد منهم وقد شل عقله تماما وهو يرى قوة أخرى غير قوته، وإرادة أخرى غير إرادته تعمل في الكون..

فإذا مضت الحادثة وانصرف آخر عامل إنقاذ، عاد المسرفون منهم إلى عتوهم، ويفسرون ما حدث بالعبث والقوى العبثية والعشوائية والمصادفات العمياء وازدادوا بذلك عمى على عماهم..

فاتتهم العبرة ونسوا التاريخ، لم يفقهوا أن ما حدث كان صيحة إنذار، ونفخة أولى في الصور، ليصحو من يصحو ويفيق من يفيق قبل أن تأتي نفخة الصور الثانية فلا ينفع التغير..

تلك كانت رواية التاريخ التي تعددت فصولها في كل الأمم، وتلك كانت قصة عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وتلك كانت سنة الله في أرضة، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وإنما الحب وروايات أهل الحب مثال من ألف مثال كلمات أهل الهوى..

فاللبيب من يعرف كيف يقرأ تاريخ البشر، وكيف يحل الرموز، ويفقه الحكمة الخافية والعبرة المستترة وراء الحوادث اليومية التي تبدو من السطح وكأنها نفس المصادفات..

جميع وسائل الإعلام الحديث في تصوير المرأة المعاصرة إنها الرموش المركبة للعين والعدسات الملصوقة وقلم روج وقلم كحل وباروكة وميك أب وأظافر مخضبة وحاملة تحت الثدي تدفع بحلمته كالمدفع إلى الإمام..

وخطوط فوق الحاجب وضل رمادي فوق العين وكعب نص متر وفخذ مكشوف ولا بأس من لفت النظر إلى الفخذ العريان بالاستعانة بجورب ملون مزركش..

وإذا كان فستان سهرة فلا أقل أن تصل فتحة الصدر إلى السرة من الأمام، وإذا قررت المرأة أن تكون متحشمة من الأمام فعليه أن يفهم فيعرى الخلف أو ينزل بفتحة الشباك الخلفي إلى أسفله بحيث يكشف الظهر كله في سخاء..

فإذا تأثرت المرأة بهدف العفة أن تغطى البطن لأسباب الحمل وخلافه فيجب على المصمم أن يكون ذكيا ويضع على مكان السرة نجمة أو وردة أوحلية وفصوص من اللؤلؤ لتقول للعيون توقفوا هنا لحظة فهنا بقعة لها دلالتها ..

لا يصح أن تمر بها العين دون أن تنظر فإذا كان الرجل أعمى، أو يضع على عينيه نظارة فلا بأس من الوصول إليه من خلال أنفه وحاسة الشم، فتدلق المرأة العطورات في جميع انحاء ملابسها..

وإذا كانت المرأة من النوع الوقور جدا كأن تكون متحفظة ، فيمكن أن تستبدل العرى بالشيفون الشفاف..

فتمشى كاسية بالعباءة من الرأس إلى القدم، وفي نفس الوقت لا تحرم العين المشتاقة من الكور الرجراجة والتلال والثنيات والمطبات من تحت العباءة اللاصقة والملونة..

ولا يبقى بعد ذلك لاستكمال العلاقة سوى نظرة نعسانة، ونبرة خافتة ناعمة وخطوة متعثرة وسلوك عذرى خجول يعاتب العيون الجريئة الزانية المقتحمة، وكأنه يقول لكل رجل اما تخجل بنظراتك ولا بأس من بضع كلمات إنجليزية هنا وهناك، كرتوش ختامية للصورة..

ومثل هذه المرأة المصنوعة إذا وضعت رأسها تحت الدش، أو تصبب عليها العرق في يوم شديد الحر ليمحو الطلاء والميكا أب سوف تتحول إلى امرأة بشكل مختلف كليا..

ولنتفكر معا في هدوء في هذا الفهم الحديث لمعنى الأنوثة، هل هو تقدم في تصور الأنوثة أم تأخر ورجعية، بلا شك أن أمهاتنا الرجعيات من الجيل القديم، قد فهمن الأنوثة فهما أكثر تقدما من حفيداتهن المثقفات، فالمرأة العصرية في الحقيقة لم تتقدم في بيتها، وإنما على العكس رجعت به إلى الوراء خطوتين ..

فجعلت من جسدها وأنوثتها كسلعة في الأعين ، وتصرفت على عكس ما تدعى وعلى عكس ما تقول بلسانها متهمة الرجال بأنها ليست سلعة رخيصة وليست موضوع لذة للفراش بل توضع في قصر الحر ملكه، ولا يكون هذا الأسلوب في الإغراء إلا أسلوب الجواري والرقيق بعينه، وإذا كان هذا هو فهم المرأة العصرية للتقدمية وللحرية فإنها تزيف علينا الألفاظ وتخرجها من مدلولها، فلا تقدمية في مثل هذا السلوك ولا حرية وإنما نحن أمام الرجعية بعينها.

الأنثى المرغوبة :

اختفى الإنسان حياء وأطل الحيوان من وراء الهضاب، إنها تزنى حتى بالألفاظ، فتستخدم الأسماء في غير مسمياتها بل وفى عكس مسمياتها، فتسمى الرجعية حضارة وتقدم وتستحث الأعضاء التناسلية للوثوب، مستخدمة آخر صيحات الموضة..

أستاذتها في هذا الأسلوب، ورائدتها ومثلها الأعلى ممثلة سينما وعارضة أزياء على الأكثر أو مشهورة في وسائل التواصل الاجتماعي السوشل ميديا والأنترنت..

هذا هو الفهم الثائر للمرأة المرغوبة، وهو فهم ينحط بالمرأة وبالرجل معا، تخطى المرأة تماما إذا تصورت أن هذا هو تصور التقدمي للأنوثة وللمرأة..

فالرجل السوي لا يتصور المرأة مجموعة أغرائات وإنما يفهم الأنوثة على أنها أمومة، والمرأة المرغوبة هي المرأة التي تستطيع أن تجسد الرحمة والحنان، والتعاطف والمودة والفهم، ويعلم تماما أن الأنوثة ليست صدرا ونفخا للجسد..

ويعلم جيدا أن هذه المقاسات المثالية سوف تتبخر بعد أول حمل وأن الغزالة تتحول إلى بقرة، وأنه لا يبقى من الأنثى مما له اعتبار في قيام البيوت إلا الأمومة والرحمة والحنان والقيم في البيت، وأن الحرية هي أن تتحرر المرأة أولا من إلحاح الحيوان في داخلها، ومن لهاث الحواس والغرائز لتصبح إنسانًا..

هذا مفهوم كل رجل سوى للأنوثة الحقة، فإذا كان هذا الكلام في نظر السيدات العصريات رجعية وتخلف، فأنا رجعي جدا ومن حسن الحظ أن هذه الثورة لم تشمل كل الجيل بعد، فما زال الكثير من نسائنا فاضلات، وما زلن رجعيات مثلى والحمد لله..

جاء التقدم واستحدث معه صناعات أفسدت البيئة، لم نعد نعرف تلك النسمات المنعشة الطليقة التي عرفها أجدادنا في أيام العصور الزراعية المتخلفة..

وازدحمت المدن بالناس واختنقت الشوارع بالمارة، وضاقت العمارات بسكانها، وأصبحت كعلبة فسد هواؤها وأصبح التنفس ثقيلا مرهقا، وكأن الإنسان ينتزع الهواء انتزاعا من عالم بلا هواء، الأراضي الطبيعة البكر فقدت بكارتها، والغابة العذراء فقدت عذريتها، والأنهار الجارية تلوثت بالمخلفات الكيماوية، والبحار تلونت بالمخلفات الذرية..

تقدمنا أكثر بعد اكتشفنا من وسائل الإبادة الحشرات الضارة، فرحا لأننا سوف نستأثر بثمرات الأرض دون أن تنافسنا فيها الديدان والبهائم، فكانت نتيجة ذلك الرش المستمر بالمبيدات أن ماتت الحشرات الضارة، وماتت معها الحشرات النافعة، ومات النحل في خلاياه، وخرج العسل ملونا، كما مرضت البهائم التي تتغذى على المزروعات وأصبح لبنها ملونا ولحمها ملونا، كما مرضت الأسماك في البحر، والطيور في الجو، ومرض الإنسان بما يأكل..

فأصبح إنسان اليوم إنسانا شاحباً لاهت الأنفاس هضيم الوجه، يشكو الأمراض الكبد والبلغم والربو والمصران، ويخطو إلى الشيخوخة المبكرة ومازال في الخمسين من عمره..

وحرص الإنسان على هدم ما تبقى من صحته، فأصبح لا يفارق تدخين السيجارة، يرضع منها السم بنهم، وينفث الدخان اللاسع في وجوه الناس، ثم استحدث الإنسان تلوثا جديدا هو التلوث الضوضائى بما اخترع من موتورات وماكينات وأوناش وجرارات ومكروفونات ومكبرات صوت ملأت الأسماع بالضوضاء إلى درجة الصمم..

وانتهت الموسيقى الرومانتيكية الحالمة وظهرت أنواع جديدة من الموسيقى النحاسية الصاخبة، والطبول المجنونة والإيقاعات المدوية، وظهر الجيتار الكهربائي والأورج الكهربائي والبيانو الإلكتروني واختفى العود الذي كان يداعب ويهمس ويوشوش، وأصبحت الموسيقى شيئًا غليظا فاحشا، يخرق طبلة الأذن..

في هذا العصر تلوث كل شيء، حتى الفضاء تلوث بما ألقى الإنسان فيه من آلاف الأقمار الصناعية، والسفن الفضائية وكواكب التلصص والتجسس، وصواريخ الرصد والتصوير..

أفسدت هذه الأجسام الغريبة الطفيلية التي ألقينا بها في فضاء الكون العلاقات المغنطيسية المحكمة بين الكواكب، وأفسدت الأرض المغنطيسي فالطقس تقلب، أصبح الصيف شتاء والمطر جفاف والأعاصير تأتى بخلاف معدلاتها المحسوبة، وفي غير مواسمها، انفجرت الزلازل والبراكين وتغيرت خريطة الأرصاد الجوية..

وجاء أخطر أنواع التلوث في هذا العصر وهو التلوث الأخلاقي، من وسائل إعلامية وأنترنت تدخل على الإنسان في غرفة نومه، وتزاحم العائلة على مائدة العشاء مثل التليفزيون والهاتف الذكي بحجم الكف الذي يأخذه النائم حضنه..

فمن خلال هذه الوسائل الحميمة أصبح في إمكاننا أن نقدم للناس ما نريد، وأصبح في الإمكان أن نروج للباطل وتنشر الأكاذيب..

وأصبح في الإمكان أن ندعو للشهوات عيانا بيانًا بما نغنيه على أسماع الناس ليل نهار من كلمات مغازلة، وما نعرضه على أعينهم من مناظر عارية، فيتربى الصغار على أن هذا هو الأمر الواقع، فينتهى الحياء، وبانتهاء الحياء تبدأ حياة الأنعام ..

برغم أن الإنسان مشى على القمر وتحكم في طاقة البخار، والبترول والكهرباء والذرة وغزا الفضاء، لكنه بقدر ما حكم هذه الأشياء، بقدر ما فقد التحكم في نفسه، وبقدر ما فقد السيطرة على

غرائزه الحيوانية فنحن أمام إنسان أقل رحمة، وأقل مودة وأقل عطفا وأقل شهامة وأقل مروءة وأقل صفاء من إنسان العصر الزراعي المتخلف القديم، تقدمنا عشر خطوات إلى الأمام، وسرنا مثلهم إلى الخلف .